الإسلام في إفريقيا وأثــره في تطـور العلاقات التجارية مع مصـــر

د.لمـــى فائــق احمــد
تاريخ/ إسلامي

Introduction

The Islamic religion spread follows the traders so that wherever they spread in areas not hit by Muslim armies, or migrations, such as South East Asia and some parts of East Africa as well as several destinations in the continent of Europe.

It seems the role of Egypt in the global commercial activity prominent in the various periods of history because of what has been printed in an excellent location between the East and West.

We have many links and relations between Egypt and Africa in various aspects during different eras, particularly in the Mamluk era, it is business relations and cultural ties to Egypt was through all these links and relationships radiate light shines of Africa.

Has stemmed the importance of trade relations between Egypt and the continent that Egypt was the main crossing on the way up Africa's trade markets in Europe.

The fact is that Egypt in those times were not a conduit for trade in Africa but also for the trade of Asian and contrast this with regard to trade European has Egypt has sought to capture the key role in world trade has prohibited traders Europe to connect to markets, Asia or Africa was a direct and far place him up these traders is Cairo.

المـقـدمـــة

ان الدين الإسلامي يتبع في انتشاره التجار أينما حلوا بحيث انتشر في مناطق لم تصل اليها جيوش المسلمين أو هجراتهم مثل جنوب شرق آسيا وبعض أجزاء من شرق أفريقيا فضلاً عن عدة جهات في قارة اوربا .

ويبدو دور مصر في النشاط التجاري العالمي بارزاً في مختلف عصور التاريخ نظراً لما تتمتع به من موقع ممتاز بين الشرق والغرب .

ولقد تعددت الصلات والعلاقات بين مصر وافريقيا، في شتى المناحي خلال العصور المختلفة وبالذات العصر المملوكي فمن علاقات تجارية الى روابط ثقافية وكانت مصر من خلال كل هذه الصلات والعلاقات تشع نوراً يضئ لأفريقيا .

وقد نبعت أهمية العلاقات التجارية بين مصر والقارة من ان مصر كانت المعبر الرئيسي الذي تصل عن طريقه تجارة افريقيا الى أسواق اوربا . والواقع ان مصر في تلك العصور لم تكن معبراً لتجارة افريقيا فحسب بل للتجارة الآسيوية وعلى عكس هذا فيما يتعلق بالتجارة الاوربية وقد حرصت مصر على الاستئثار بالدور الرئيسي في التجارة العالمية فمنعت تجار اوربا من الاتصال بأسواق آسيا أو أفريقيا
مباشرة وكان أبعد مكان يصل اليه هؤلاء التجار هو القاهرة .

كانت مصر هي القاعدة في انتشار الاسلام في افريقيا فمن مصر أخذ انتشار الاسلام شكل محورين متعامدين أنطلق أحدهما في شمال القارة متجهاً الى الغرب وأنطلق الآخر في شرق القارة ووسطها .

وهكذا خرجت الحملات الاسلامية من مصر بعد اتمام فتحها في اتجاه المغرب حتى وصلت الى المحيط الأطلسي وعبرت المضيق الى الاندلس، في حين خرجت جيوش أخرى الى النوبة والبجة وذلك بعد فترة قصيرة من اتجاه الجيوش الى المغرب وقد تم ذلك خلال القرن الأول الهجري . وفي فترة لاحقة وصلت الجيوش الإسلامية الى سواكن . ومن الطبيعي أن تسير الدعوة الى الاسلام في ركاب الجيوش الإسلامية وإن لم تتخذ هذه الدعوة صفة الارغام على اعتناق الدين الاسلامي .

وبعد انتشار الاسلام بين أهل المغرب أن قام هذا الفريق الجديد من المسلمين بحمل الدعوة الاسلامية بدورهم الى غرب ووسط أفريقيا مستخدمين الفتح العسكري حيناً والهجرة والتجارة أحياناً . ولم يوجد شبيه لمثل هذه الصورة على المحور الشرقي وإنما كانت هجرات القبائل العربية هي القوة الفعالة في نشر الإسلام بتلك المناطق .

كما ظهر في غرب أفريقيا كثير من المراكز الإسلامية انطلق منها الاسلام صوب الشرق مثل ملى وسنفي[١] وأما على ايدي التجار حتى وصل الى بحيرة شاد حيث قامت سلطنات إسلامية مثل كانم والبرنو[٢] .

ولم تكن مصر مصدراً للحملات العسكرية الى افريقيا فقط بل أصبحت كذلك مصدراً لهجرات عديدة من القبائل العربية متجهة إما الى شمال أفريقيا أو الى وسطها كذلك شهد البحر الأحمر هجرات من الجزيرة العربية واليمن الى الشاطئ الشرقي لأفريقيا وما كان يتبع استقرار القبائل من مزاوجة ومصاهرة بين القبائل الوافدة وأهالي البلاد من انتشار للدين الحنيف[٣] .

ان هذه القبائل لم تستقر بمجرد وصولها الى مكان معين فكثيراً ماكانت تنطلق من الشرق الى الوسط ثم الى الغرب، والعكس أيضاً صحيح فها هي مثلاً قبائل بني هلال بعد ان وفدت الى مصر واستقرت بالصعيد تنطلق الى شمال أفريقيا[٤] .

كانت مصر مركزاً رئيسياً للعرب الوافدين من بلاد العرب سواء كانوا جنوداً أو في جيوش الفتح أو قبائل مهاجرة فهاجرت اليها قبائل كثيرة منها كنانة وخزاعة وبنو أسد وهزيل وتميم وغطفان وسليم وهوازن وربيعة وهلال وسائر قبائل الأزد وهمدان وخثعم وقضاعة وجميع بطونها[٥] .

ولم يتوقف تدفق العرب على مصر بقيام الدولة العباسية بل أدى تعصب العباسيين للفرس الى مزيد من هجرة بعض القبائل العربية فكان ان هاجرت الى مصر بطون كثيرة من قبيلة ربيعة في عصر المتوكل واستقرت بالصعيد .

واستمرت هجرة القبائل العربية الى مصر في عهد الدولة الفاطمية فقد هاجرت قبائل من طي وقبائل من فزارة، كما شجع الخليفة العزيز بالله الفاطمي قبيلتي هلال وسليم على الهجرة الى مصر وانزل أفراد كل منهما بصعيد مصر[٦]، وهكذا تمثل في مصر في العصر الفاطمي جميع فروع شجرة النسب فمن عرب الجنوب جذام وطئ وبلى وجهينة ومن عرب الشمال كنانة وقيس وفزارة وربيعة وهوازن وهلال، ومن الطبيعي أن يؤدي اختلاط تلك القبائل العربية بالمصريين الى تعريب البلاد وانتشار الإسلام فيها .

ثم كان ان شجع الفاطميون قبائل بني هلال وسليم على الهجرة الى المغرب لتجنب فسادهم في مصر[٧] . وقد أدى تدفق الهلالية على المغرب الى هجرة قبائل البربر الى نواحي تادمكة قرب مراكش[٨] كما صارت سجلماسة موطناً لمكناسة[٩]، أما قبائل هوارة لمطة فتحركت الى مايلي بلاد كوكو من السودان[١٠] كما توغلت تلك القبائل جنوباً ناشرة الاسلام في غرب أفريقيا[١١] . كذلك ساهمت لمتونة في نشر الاسلام في السودان حتى ان ابن خلدون يقول ((ودان لملكهم عبد الله عشرون ملكاً من ملوك السودان))[١٢] . وقد ساهم المرابطون في نشر الاسلام في غرب أفريقيا على يد عبد الله أبن ياسين[١٣] . أما الطوارق فكان لهم شأن عظيم في نشر الاسلام في منطقة السنغال والنيجر حتى امتدت هجرات البربر الى بلاد برنو ووصلت الى دارفور شرقاً[١٤]

.

وقد شهدت النوبة والبجة ووسط السودان هجرات عربية تمثلت في قدوم قبائل وأفراد عليها منذ فجر الاسلام وهؤلاء قاموا بدور عظيم جداً في نشر الاسلام في تلك البقاع وكان انتشار الاسلام في تلك الانحاء سابقاً على الفتوح الإسلامية ولايعني ذلك ان نسبة المسلمين كانت كبيرة وإنما كل مانعنيه هو أنه وجدت أعداد منهم فعلاً في تلك البلاد منذ وقت مبكر ودليلنا على ذلك معاهدة ((البقط)) أو ((صلح النوبة)) التي وقعت في عام (٣١هـ) في ولاية عبد الله بن أبي السرح وهي المعاهدة التي نص فيها على عدم المساس بالمسجد المقام في دنقلة[١٥] .

وفي الصلح الذي عقد في عهد الخليفة المأمون سنة (٢١٦هـ/ ٨٤١م) بين عبد الله بن الجهم وكنون بن عبد العزيز ملك البجة اتفق على شروط منها :

١- إذا دخل أحد من المسلمين في بلاد البجة للتجارة أو الاقامة أو مجتازاً للحج فهو آمن .

٢- ألا يهدم البجة شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون[١٦] .

ومن ملامح هذه الهجرات ان فرعاً من قبيلة ربيعة التي استقرت بالقرب من أسوان استطاع أن يبسط نفوذه على المريس وهي الجزء الشمالي من بلاد النوبة وكان ان خلع الحاكم بأمر الله الفاطمي لقب كنز الدولة على زعيم ربيعة لقضائه على الثائر الأموي أبو ركوة (٩٩٧- ١٠٢١م) ومن ثم فقد عرف بنو ربيعة في تلك الجهات بأسم بني كنز ولم يلبث بنو كنز أن نشروا نفوذهم على الجزء الشمالي من بلاد النوبة وخاصة بعد أن صاهروا النوبيين بل أنهم تمكنوا من مصاهرة البيت المالك في دنقلة وبذلك مهدوا للوصول الى عرش النوبة بعد أن أضعفته حملات المماليك[١٧] .

كذلك هناك المجموعة الجعلية على قبائل أخرى لها أسماء خاصة بها مثل قبيلة الشايقية والرباطاب والميرافاب وأغلبهم من العرب العدنيين وتمتد أوطان هذه المجموعة من دنقلة في الشمال الى بلاد الدنكافي في الجنوب كما أن لهم أوطاناً أخرى بعيدة عن النهر في سهلي البطانة وكردفان[١٨] .

ومن القبائل التي انتشرت بوجه خاص في مصر وأفريقيا والمغرب عن طريق الفتوح الإسلامية والهجرة جهينة وتنتمي الى القحطانيين وقد انقسمت قحطان الى شعبتين كبيرتين هما كهلان وحمير تفرعت من كهلان عدة قبائل مشهورة مثل جذام ولخم وكندة ومن حمير تفرعت قضاعة وبلى[١٩] .

كذلك وصلت مجموعة الكواهلة الى أفريقيا وان كانت هذه المجموعة تعد مجموعة صغيرة إذا ماقيست الى المجموعتين الكبيرتين السابقتين وقد نزلوا في وقت متقدم على سواحل البحر الأحمر مابين عيذاب وسواكن وخالطوا البجة وانتقلت بطون من الكواهلة من شرق السودان واتخذت لها

أوطاناً في إقليم عطبرة والنيل الأزرق ثم هاجرت جماعات أخرى ونزلت على النيل الأبيض كما انتشرت في كردفان[٢٠] .

الرحلات التجارية

كانت التجارة غرضاً من أغراض السفر فأهدافهم التجارية دفعت بالعرب بعيداً في أفريقيا فقد قطعتها قوافل العرب شرقاً وغرباً وكان تجارهم أحد العوامل الهامة في نشر الاسلام لأمانتهم وتدينهم ونظافتهم مما جعلهم بسلوكهم قدوة طيبة أمام الأفريقي يحذو حذوها ويترسم خطاها .

فقد خرجت من مصر القوافل التجارية الى شمال القارة وغربها ووسطها وشرقها وكانت هناك مبادلات تجارية بين شمال القارة وغربها ووسطها، أما فيما يتعلق بالساحل الغربي للبحر الأحمر فإنه لم يشكل عقبة أمام التجار فعبروه وأسسوا المراكز التجارية والإمارات الإسلامية على شاطئه الغربي[٢١] .

وقد ساهم النشاط التجاري لمصر والمغرب في نشر الاسلام في غرب القارة وساعد على ذلك قيام المدن الاسلامية على طول الطرق التجارية فكانت طرابلس مثلاً على رأس أحد الطرق الهامة المؤدية الى السودان وكانت مركزاً لتجارة الرقيق كما أصبحت القيروان مدينة تجارية وازدحمت برقة بالبضائع من الشرق والغرب والجنوب[٢٢] . كذلك نشأت المدن التجارية في قلب أفريقيا مثل كومبي وتمبكتو ونياني وكانت كبارة ميناء تمبكتو الحربي والتجاري وملتقى البضائع القادمة من شمال أفريقيا ومنها تتجه الى مالي والنيجر الأعلى والى هذا الميناء تصل بعض البضائع الأفريقية المنقولة عبر نهر النيجر في طريقها الى شمال أفريقيا[٢٣] .

وكانت القوافل المصرية تجوب أنحاء الصحراء الكبرى تحمل المصنوعات المصرية وتأتي بالمنتجات المحلية . كما حمل التجار المصريون معهم الإسلام وعلومه الى سكان هذه الصحراوات وواحاتها وسلطنات النيجر[٢٤] .

وقد قامت تادمكة ((مكة الجديدة))[٢٥] التي أصبحت مركزاً هاماً لطرق القوافل في القرن الحادي عشر الميلادي بدور بارز وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد في تحويل اعتناق ملوك هذه البلاد للإسلام[٢٦] .

وقد وصلت القوافل المصرية الى السودان الغربي فجابت آفاقه مثقلة بالبضائع من منسوجات متنوعة وبأصناف المصنوعات كالسروج واللبود والملح ثم تعود الى القيروان محملة بالتبر والعاج وغيره ومصحوبة بالرقيق[٢٧] .

وقد سبقت التجارة الفتوح الاسلامية والهجرات كأحد العوامل المساعدة لنشر الاسلام في غانة[٢٨] إذ دخلها الاسلام عن طريق التجارة لأول مرة في القرنين التاسع والعاشر للميلاد[٢٩] وتعد غانة في ذلك الوقت أكبر بلاد السودان وكانت مقصد التجارمن جميع بلاد القارة وإن كان أغلبهم من المغرب حيث قدموا عن طريق سجلماسة وهي آخر بلد من بلاد المغرب وهو طريق مقفر يتمثل في مفاوز عظيمة وكان التجار يقطعونه في حوالي خمسين يوماً[٣٠] .

المدن التجارية في أفريقيا

ومن المدن التجارية التي قامت بدور هام في الاسلام في غرب أفريقيا مدينة جني التي تأسست عام (٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م) والأخرى مدينة تمبكتو وكانت مركزاً هاماً لتجارة القوافل مع الشمال .

وكما قام التجار في غرب أفريقيا بدور هام في نشر الاسلام فإنهم قاموا بنفس هذا الدور في البجة والنوبة ذلك انهم انتشروا في بلاد النوبة وكانوا يجتمعون في مدينة بولاق حيث يفد اليها تجار النوبة والحبشة ومصر والسودان[٣١] . ويبادلونهم بالخرز والأمشاط والمرجان والمنسوجات ويجلبون منهم الرقيق والأبنوس وريش النعام وغيرها[٣٢] . ومعاهدة البقط تمثل في ثناياها تسهيلاً وحماية للتجار والوافدين من مصر الى النوبة وبالعكس وكما سبق القول بأنه في تصرفات التجار المسلمين ومعاملاتهم وثقافتهم وحضارتهم دعوة غير معلنة لاعتناق الإسلام .

ولم يقتصر دور التجار المسلمين في نشر الإسلام على غرب أفريقيا والنوبة بل انهم قاموا أيضاً بدور مهم في نشر الاسلام بمنطقة السودان الأوسط التي تضم مملكة الكانم[٣٣] وبرنو وكانت التجارة تسير إليهما عن طريق فزان الى بحيرة شاد[٣٤] وقد أدت هذه الصلات التجارية الى اعتناق سلاطينهم الاسلام[٣٥] .

وبالمثل كان لتردد تجار المسلمين على الساحل الشرقي لقارة أفريقيا أثر في إسلام أهل هذه المناطق ونشأة مايعرف بأسم دول الطراز الإسلامي[٣٦] كذلك نشأت المدن الكبيرة على الساحل مثل مقديشو التي وصلها البهار من كافة الأرجاء[٣٧] كما زادت أهمية جزيرة دهلك في بحر القلزم أمام ساحل الحبشة وكانت ترسو بها جميع السفن المارة في هذا البحر[٣٨] وزالغ وهي مدينة مزدحمة ويصلها كثير من التجار وترسو بها كثير من السفن المارة في البحر الأحمر[٣٩] وغير ذلك من المدن والمراكز التجارية التي عمَرها التجار المسلمون يدلنا هذا على ماكان من أثر لتلك المراكز التجارية في نشر الدين الإسلامي وقد تأسس على الشاطئ الشرقي للقارة سبع امارات اسلامية نتيجة لذلك .

دور مصر في التجارة مع القارة الأفريقية

مما لاشك فيه ان مصر قامت بدور كبير ليس في التجارة الداخلية للقارة فحسب ولكن في التجارة العالمية وقد أهلها موقعها وثراؤها وعظمتها السياسية في العصر المملوكي لأن تقوم بأهم دور تجاري في العالم في ذلك الحين وتعددت صلاتها التجارية بجميع ارجاء القارة .

وفضلاً عن أهمية موقع مصر للتجارة العالمية فإنه قامت بها صناعات متعددة أشهرها صناعة النسيج بمختلف أنواعه من حرير وصوف وقطن وكتان الذي كانت أشهر مراكز انتاجه مدينة بوش على شاطئ النيل بجوار منية القائد[٤٠] وكانت منسوجاتها مطلوبة في أنحاء العالم الى جانب معدني الشب والنطرون .

وقد أطلق على التجار الذين قاموا بالجزء الأكبر من النشاط التجاري في المحيط الهندي وأفريقيا والبحر الأحمر ومصر اسم الكارمية[٤١] وكان هؤلاء التجار يجلبون الى دولة المماليك بضاعة من أهم البضاعات التي قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها وهي التوابل والبخور والصمغ والعاج وغيرها من منتجات أفريقيا وآسيا وقد أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من اشتغل بتجارة البهار والفلفل[٤٢] .

ومما لاشك فيه ان التجارة الكارمية كانت الركيزة الاقتصادية لدولة المماليك وأحد أسباب ثرائها الفاحش في تلك العصور .

ولم يكن منشأ الكارمية في عصر المماليك، بل انهم وجدوا قبل هذا العصر إذ يشير القلقشندي الى ان الدولة الفاطمية كان لها اسطول بعيذاب لحماية التجارة الكارمية فيما بين عيذاب وسواكن من قراصنة كانوا بجزائر البحر الأحمر يعترضون المراكب وكان عدة هذا الاسطول خمسة مراكب ثم صارت ثلاثاً وكان والي قوص هو المتولي أمر هذا الاسطول وربما تولاه أمير وكان يحمل الى هذا الاسطول كفايته من السلاح[٤٣] .

وسلكت الدولة الأيوبية مسلك الدولة الفاطمية في الحفاظ على تجارة البحر الأحمر من الخطر الصليبي حيث فشلت الحملة التي قادها أرناط أمير حصن الكرك لقطع طريق البحر الأحمر[٤٤] . وعملت على توكيد نفوذ الكارمية وتشجيعهم على التوسع في مشروعاتهم التجارية . ونعرف من ابن دقماق ان تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين وقف للكارمية فندقاً لسكناهم بمصر[٤٥] وأن تبنى للتجار الكارمية الفنادق في مصر يعني انهم أصبحوا ذوي مركز اقتصادي ثابت وان الدولة تشجعهم على الاستمرار في نشاطهم التجاري .

وكان من أهم الأعمال للحفاظ على الكارمية هو السهر على حمايتهم[٤٦] وتأمين طرقهم التجارية في البحر الأحمر وقد كان سلاطين المماليك يقومون بحل كل مشاكل الكارمية دونما ابطاء أو تأخير وكان كثير من مشاكلهم يعرض على السلطان فمثلاً في سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) تقدموا بشكوى في حق متملك سواكن ومتملك جزيرة دهلك بأنهما يتعرضان لأموال من يموت من التجار في بلادهم فأرسل السلطان الظاهر بيبرس رسولاً ينكر عليهما ذلك[٤٧] ويبدو ان الانذار لم يكن كافياً لردعهما عن أفعالهما مما حدا بالسلطان الظاهر بيبرس الى إرسال أوامره الى والي قوص لإرسال حملة عسكرية الى سواكن (٦٦٤هـ/ ١٢٦٤م) واستطاعت الحملة أن تحقق أهدافها فنشرت الأمن وبسطت الحكم المصري على سواكن[٤٨] .

وبالأضافة الى محافظة المماليك على سياستهم في تأمين الطرق التجارية والموانئ فانه كان للسياسات الإسلامية التي اتبعتها الدولة الإسلامية بعدم دخول أي سفن أو تجار أجانب غير مسلمين الى البلاد الإسلامية أثر كبير في زيادة ثروة الكارمية فلم يكن يسمح للسفن الهندية والصينية بإجتياز عدن الى الشمال لأن عملية نقل البضائع الصادرة الى الشمال كانت موكولة الى سفن إسلامية كما لم يسمح سلاطين المماليك لأي تاجر أوربي بأن يتوغل جنوباً بتجارته أو بمفرده الى بلاد النوبة خوفاً من تآمر هؤلاء التجار مع الحبشة ضد المسلمين وكان هذا هو السبب الظاهري أما السبب الحقيقي فهو حرص المماليك على عدم معرفة الأجانب بالطرق التجارية المارة في البلاد[٤٩] .

ونتيجة لهذا سيطر الكارمية على تجارة البحر الأحمر ووصلوا بتجارتهم الى السودان الغربي والأوسط والنوبة . كما وصلوا بمتاجرهم الى بلاد الحبشة ودول الطراز الاسلامي والمشيخات الاسلامية على ساحل البحر الأحمر . ولعل أعظم ماأقبلت عليه تلك الجهات الأفريقية من متاجر مصر أقمشتها وكان ملوك المسلمين بالحبشة يؤدون الى ملك الحبشة ضريبة سنوية من الأقمشة الحريرية والقطنية التي تأتيهم من مصر[٥٠] . كذلك أصبحت موانئ البحر الأحمر مخازن لتجمع بضائع الكارمية قبل نقلها الى مصر .

وقد كون التجار الكارمية نقابة لهم في قوص هيمنت على تجارة التوابل وكان رئيسها يطلق عليه رئيس الكارمية[٥١] . وهو أكثر الكارمية مالاً ونفوذاً وجاهاً ويخضع له سائر التجار حتى أكابرهم وله المكانة الرفيعة في مصر وعند سلاطينها فضلاً عن مكانته المرموقة وكلمته المسموعة في مختلف الأسواق التجارية[٥٢] .

ونتيجة لكل تلك المنافع التي عادت على الدولة من التجار الكارمية أولاهم سلاطين المماليك اهتماماً خاصاً وأنشأوا وظيفة هامة لرعاية مصالحهم هي وظيفة نظر البهار والكارمي[٥٣] .

وتؤيد الاشارات المتناثرة في ثنايا الكتب وصول التجار المصريين الى بلاد المغرب أو وصول تجار المغاربة الى مصر فيذكر ابن خلدون انه حضر الى مصر في سفينة لتجار الاسكندرية كانت مشحونة بالبضائع واستغرقت رحلتها أربعين ليلة من ميناء تونس[٥٤] . كذلك يذكر ابن خلدون أيضاً ان السلطان أبا تاشفين ملك تلمسان لما قبض على أبيه سنة (٧٩٥هـ) سرحه الى المشرق لقضاء فريضة الحج في سفينة لبعض تجار النصارى المصريين المترددين على تلمسان من الاسكندرية[٥٥] .

وقد حملت قوافل المغرب الى الاسكندرية القمح ورقيق السودان من القيروان التي كانت مركزاً تجارياً عظيماً[٥٦] . وحملت الزيت من سفاقس وتاجرت مع المهدية وطرابلس كما كانت الأقمشة الحريرية تنسج في القيروان وتجهز في سوسة وبالقرب من قفصة كان يصنع نوع خاص من الكساء يصدر الى مصر[٥٧] .

ولم تكن المبادلات قاصرة على المنتجات الزراعية والصناعية فقط بل تعداها الى الأخذ بأساليب الصناعة وطرائقها فقد أخذت سفاقس عن الاسكندرية طريقة صناعة الأقمشة بل وتفوقت فيها .

وقد قامت علاقات تجارية وثيقة بين مصر وبلاد السودان وخاصة مالي أعظم بلاد السودان في ذلك العصر وحدها في المغرب المحيط وفي الشرق بلاد البرنو وفي الشمال جبال البربر وفي الجنوب الهمج[٥٨] .

وكان لأهل كانم نصيب كبير في تجارة مصر الخارجية حيث اشتغلت طائفتهم بتصريف المحاصيل السودانية وتجارة الرقيق كما اشتغلوا في تجارة البهار بين الهند والصين واليمن والحبشة وكانت قوص مركز هذه الطائفة وأصبحت بفضلهم من أعظم مراكز التجارة في العالم[٥٩] .

ولم تقم العلاقات التجارية مع النوبة في ظل تبادل تجاري سلمي بين بلدين مستقلين كما كانت بين المماليك ودول المغرب أو بينهم وبين دول السودان المغربي أو وسط السودان بل قامت في فترات كثيرة تحت ظلال سيطرة عسكرية مملوكية على النوبة[٦٠] .

ويرجع اهتمام المماليك بالسيطرة على النوبة الى ان هذا كان جزءاً من سياستهم التجارية في البحر الأحمر[٦١] . لذلك نلاحظ ان المماليك كانوا يرسلون الحملات المستمرة والمتتالية الى النوبة لاخضاعها لسيطرتهم وكثيراً ما حضر ملوك النوبة الى مصر رمزاً لخضوعهم حاملين هدايا مختلفة من أبقار ورقيق وسنبادج[٦٢] .

كذلك نشطت التجارة مع البجة حيث كان يستخرج من أرضها الذهب[٦٣] والزمرد ثم يحمله التجار الى سائر الأقطار كما كانوا يقومون بنقل التجارات من موانئ البحر الأحمر الى مصر[٦٤]

وأهمية البجة الأخرى غير وجود الذهب بأرضها ونقل التجارات عبرها هي ميناءيها عيذاب وسواكن وقد استمر حجاج مصر والمغرب يتوجهون الى مكة عن طريق عيذاب مخترقين بلاد البجة لفترة تزيد عن مائتي سنة كما كانت عيذاب وسواكن مراسي لمراكب الهند واليمن والساحل الشرقي لأفريقيا وكانت البضائع تفرغ فيهما لتحمل الى مصر[٦٥] .

وقد مثل البحر الأحمر أهم مورد تجاري لدولة المماليك فعن طريقه كانت تأتي تجارات آسيا وشرق أفريقيا لتنقل عبر بلاد البجة الى مصر ومنها الى الاسكندرية وكان ذلك مبعث الاهتمام المصري بموانئ البحر واخضاعها كلا من عيذاب وسواكن لسلطانها .

وفضلاً عن علاقة مصر بالحبشة قامت علاقات تجارية بين مصر وامارات الطراز الإسلامي حيث احتكر المسلمون التجارة على السواحل وكان الأحباش بطبيعتهم يأنفون أو يحتقرون الأعمال التجارية لذلك خلا الجو لأهالي دول الطراز لاحتكار التجارة مما أدى الى زيادة الروابط الأقتصادية بين مصر وامارات الطراز الإسلامي والحبشة[٦٦] .

كذلك كانت دهلك من المراكز التجارية الهامة بالساحل الشرقي لأفريقيا وكان ملوكها يدينون بالاسلام[٦٧] . وكان أقصى ماوصل اليه مراكب المسلمين في البحر الأحمر أقليم سفالة (موزمبيق) جنوب خط الاستواء[٦٨] .

<u>طرق التبادل التجاري</u>

الواقع ان طرق التعامل اختلفت من بلد لآخر بل من مدينة لأخرى وإن كانت المقايضة هي السمة الغالبة للتبادل التجاري في أغلب أنحاء أفريقيا وهذه المقايضة كانت بين بلد وأخرى حيث انه داخل بعض البلاد كمصر والمغرب كان التعامل الغالب بالنقود .

ففي غرب أفريقيا اشتهرت طريقة التعامل بطريقة التبادل الصامت[٦٩] ويعني هذا المصطلح التعامل أو المساومة بين أقوام لايعرف أحدهم لغة الآخر كما يحرص أحدهم على الأحتفاظ بسر منابع ثروته خوفاً من النهب والسطو أو لأن قوماً من السذج يتعاملون مع قوم أدت حوادث التعامل الى انعدام الثقة فيهم[٧٠] .

وفي تكدا كان تعاملهم بالنحاس الذي يسكبونه ويصنعون منه قضباناً طولها نحو شبر ونصف بعضها رقيق والآخر سميك وتباع القضبان السميكة كلها أربعمائة قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقيقة كل ستمائة وسبعمائة بمثقال ذهب وكانوا يشترون بالرقيقة اللحم والحطب وبالسميكة العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح[٧١]، أما في زويلة فيتبايعون بثياب قصار حمر[٧٢] .

وفي كانم كانوا يتعاملون بقماش ينسج عندهم اسمه دندى طول كل ثوب عشرة أذرع[٧٣] ويشترون به من ربع ذراع فأكثر كما يتعاملون أيضاً بالودع والخرز والنحاس المكسي وكل ذلك يسعر بذلك القماش[٧٤] .

وفي النوبة والبجة كان التعامل مقايضة أو معاوضة فكانوا يبادلون الرقيق والذهب والمواشي والجمال والحديد والحبوب بالخرز والأمشاط والمسابح والمرجان والمنسوجات[٧٥] .

أما في الحبشة فكان التعامل يتم مقايضة أيضاً حيث كانوا يبادلون العاج والصندل وسائر منتجاتهم مقابل المنسوجات والزجاج والأمشاط والأبقار والأغنام أما الحبوب والقمح[٧٦] والشعير فليس لها قيمة تذكر وذلك لأنهم يأكلون اللحم واللبن بكثرة[٧٧] .

أما دول الطراز الإسلامي والمشيخات الاسلامية فمعاملاتهم على ثلاثة أنواع أولها مقايضة بالأبقار والأغنام، وثانيها ماهو بالدراهم والدنانير المصرية الواصلة مع التجار حيث لاتسك النقود في هذه البلاد وهذه المعاملة بالدنانير المصرية قاصرة على امارة أوفات الاسلامية، ويدلنا هذا على عظم مكانة العملة المصرية، والأخيرة ماكانت بالحنكات (جمع حنكة) وهي قطع حديد في طول الأبرة ولكنها أعرض منها بحيث تكون في عرض ثلاث أبر ويتعامل بها في سائر هذه البلاد فتباع البقرة مثلاً بسبعة آلاف حنكة والشاة بثلاث آلاف حنكة والأسعار رخيصة فيمكن شراء حمل بغل من الحنطة بدرهم واحد والشعير لاقيمة له[٧٨] .

الخاتمـــة

ان الفتوح الاسلامية وحركات الهجرة والتجارة قامت بدور مهم في نشر الاسلام ولكن ديناميكية انتشار الاسلام هذه ماكانت تتم بتلك السرعة التي فاقت انتشار أي دين آخر . فالتاريخ ملئ بالفتوح والهجرات والتجارة ولكن لم تعتنق الشعوب ديانات فاتحيها كما اعتنقت الشعوب الدين الاسلامي . فلولا طبيعة الدين الاسلامي وجوهره لما انتشر بتلك السرعة فسماحة تعاليمه وبساطة شعائره الدينية حيث لاتوجد وساطة ولاكهنوت بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده علاوة على شرائعه وتنظيمه لامور الحياة الدنيا ومساواته بين سائر البشر كافة كل هذا وغيره كثير كان له الفضل الأكبر في سرعة انتشاره .

المصادر والمراجع

١ - (سنفي) هناك مؤرخون يطلقون عليها صنفي وعرفها المؤرخون والرحالة بأسم كوكو وكانت أشهر مدنهم قبل تأسيس دولتهم سنغاي الكبرى . زكي، عبد الرحمن – الاسلام والمسلمون في شرق افريقيا- القاهرة ١٩٦٥م- ص٤٩ .

وعرف ياقوت كوكو بأنها أسم امه وبلاد من السودان وهي بالأقليم الأول وملكهم يظاهر رعيته بالأسلام وله مدينة على النيل من شرقيه اسمها سراة وبها أسواق ومتاجر وله مدينة غرب النيل يسكنها هو ورجاله (لم تكن المدينة على النيل بل كانت على نهر السنغال ولكن بعض الجغرافيين اعتقدوا ان كثيراً من انهار افريقيا هي النيل). شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت الحموي(ت٦٢٦هـ)- معجم البلدان- صححه: محمد أمين- مصر ١٩٠٦- ج٧- ص٣٠١-٣٠٢ .

٢- زكي- مالي بين ماضيها المجيد وحاضرها الناهض- مجلة كلية الآداب- عدد٤٩- يناير ١٩٦١ .

٣- محمود، حسن أحمد- الاسلام والثقافة العربية في أفريقيا- مصر ١٩٦٣-ج١- ص٢٥٧-٢٥٨ .

٤- م.ن .

٥- ابن خلدون- العبر وديوان المبتدأ والخبر- بولاق ١٣٨٤هـ - ج٦- ص٣ .

٦- م.ن - ص١٣ .

٧- م.ن - ص١٤-١٦ .

٨- م.ن - ص١١٤-١١٨ .

٩- م.ن – ص١٣٠ .

١٠- السودان معناه بلاد السود وتدل على جميع البقاع التي يقطنها السود من قارة أفريقيا وتطلق بصفة أعم على تلك المنطقة شبه الصحراوية من أفريقيا التي تغلغل فيها الاسلام أو بمعنى آخر جميع الاراضي التي الى الجنوب من الصحراء الكبرى أي من المحيط الأطلسي غرباً الى الحدود الغربية لأثيوبيا وتساير حدود خط عرض ١٠ شمالاً . دائرة المعارف الاسلامية – مادة سودان- ج١٢- ص٢٢٧-٢٢٨ .

أما الاقدمون فيعرفونها انها تلي المغرب الاعلى المتصل بطنجة ممتداً من بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) التي في جنوب مصر والمغرب . أبو حامد، محمد بن عبد الرحيم الاندلسي (ت٥٦٥هـ)- تحفة الألباب- القاهرة ١٩٢٥م- ص٤١ .

١١- ابن خلدون- العبر- ج٦- ص١٤١ .

١٢- م.ن- ص١٨٢ .

١٣- م.ن .

١٤- محمود- الاسلام والثقافة- ج١- ص٦٣ .

١٥- المسعودي، ابي الحسن علي بن الحسين(ت٣٤٦هـ)- مروج الذهب ومعادن الجوهر- مصر ١٩٤٦- ج١- ص٥٠ .

١٦- مسعد، مصطفى محمد- البجة والعرب في العصور الوسطى- مجلة كلية الآداب- مجلد ٢٢- العدد الثاني- ديسمبر ١٩٥٩م- ص٢٥ .

١٧- حسن، يوسف فضل- مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي- ١٩٧١- ص١٤ .

١٨- محمد،محمد عوض- الشعوب والسلالات الافريقية- القاهرة (لا.ت)- ص٣١٩-٣٢٠ .

١٩- محمد- السودان الشمالي سكانه وقبائله- القاهرة ١٩٦١م- ص٢٠٨ .

٢٠- محمد- الشعوب والسلالات- ص٣٢٤-٣٢٥ .

21- Archubald R. Lewis.

Novel.power and trade in the medlterranean sea A.D. 500 to 1100, New jersey 1951. p. 210.

22- Lewis, Novel power, p.210.

٢٣- نعيم قداح- افريقيا الغربية في ظل الاسلام- ص١٢٥-١٢٦ .

٢٤- رياض، زاهر- اتجاهات مصر الافريقية في العصور الوسطى- مجلة كلية الآداب- مجلد ٢٠- مايو ١٩٥٨م- ج١- ص٧٧ .

٢٥- تادمكة: ذكر البكري ان المحل المسمى بالصحراء(تدامكة) معناها على هيئة مكة أي ان تاد بمعنى الهيئة ولكن العبدري وهو يعرف اللغة البربرية يرد على ذلك ليس معنى تاد الهيئة كما ذكر ولا الهيئة أسم في لسانهم البتة وإنما معنى تاد هذه وهي من اسماء الاشارة عندهم يقولون لهذا وإذ ولهذين وهؤلاء ولهذه تاد ولهاتين وهؤلاء تيد وليس المثنى عبارة عندهم سوى عبارة الجمع إلا في ألفاظ العدد فمعنى تدامكة هذه أي شبيهتها . العبدري، ابي عبد الله محمد- الرحلة المغربية- تحقيق: محمد الفاسي- الرباط ١٩٦٨م- ص٩٠-١٥٩ .

٢٦- حسن ،حسن ابراهيم - تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي- القاهرة ١٩٦٧م- ج٤- ص٤١٢ .

٢٧- حسن ،حسني عبد الوهاب- ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية- تونس ١٩٦٦م- ص٢٩ .

٢٨- يذكر ابو حامد الاندلسي ان خمساً من قبائل غانة قد أسلمت والظاهر ان الاسلام انتشر في غانة بصورة أكبر حيث يخبرنا أبو الفدا بأن سلطان بلاد غانة يدعي انه من نسل الحسن بن علي ومدينة غانة هي محل ذلك السلطان وهي مدينتان على ضفتي النهر احداها يسكنها المسلمون والاخرى يسكنها الكفار وقبل هذا التاريخ لم يكن السلطان قد أسلم فالبكري يقول ومدينة غانة مدينتان سهليتان احداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة بها اثنى عشر مسجداً ولها الأئمة والمؤذنون وفيها فقهاء وحملة علم ومدينة الملك على بعد ستة أميال من هذه وتسمى الغابة وللملك قصر وقباب وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد من تجار المسلمين . البكري- المغرب- ص١٧٥؛ أبو الفدا- تقويم البلدان- ص١٥٦-١٥٧؛ أبوحامد- تحفة الألباب- ص٤١-٤٢.

أما موقع مدينة غانة فكانت تمتد بين وادي النيجر الأدنى شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً وبين وادي السوس والصحراء الموريتانية ومنابع النيجر والضفة اليمنى لنهر السنغال جنوباً فيما كان يسمى بلغة البلاد واكاديون Wagadon أو فيما يسمى حالياً بجمهورية مالي والسنغال . نعيم قداح- أفريقيا الغربية- ص٢٨-٢٩ .

٢٩- نعيم قداح- م.ن- ص٢٩ .

٣٠- أبو الفدا- تقويم البلدان- ص١٥٦-.١٥٧

٣١- الادريسي، أبوعبد الله محمد بن محمد(ت٥٦٠هـ)- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق- ليدن ١٨٦٦م- ص١٩-٢٠؛ أبن الوردي، سراج الدين ابي حفص(ت٧٤٩هـ)- خريدة العجائب وطرفة الغرايب- مصر١٣٧٦هـ - ص٥٧ .

٣٢- ناصر خسروعلوي(ت١٠٠٣م)- سفرنامة- نقلها الى العربية د. يحيى الخشاب- ١٩٤٥م- ص٤٦ .

٣٣- الكانم: بلادهم بين أفريقيا وبرقة ممتدة في الجنوب الى سمت المغرب الأوسط (حول بحيرة تشاد) . القلقشندي،أبو العباس أحمد بن علي(ت٨٢١هـ)- صبح الأعشى في صناعة الأنشا- القاهرة ١٩١٣م- ج٥- ص٢٨٠ .

٣٤- هوبير ديشان- الديانات في أفريقيا السوداء- ترجمة: أحمد صادق حمدي- القاهرة ١٩٥٦م- ص١٣١-١٣٢ .

٣٥-القلقشندي- صبح الأعشى- ج٥- ص٢٨٠-٢٨١ .

٣٦- الطراز الاسلامي: وهي البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالي بحر القلزم وما يتصل به من بحر الهند ويعبر عنها بالطراز الاسلامي لأنها على جانب البحر كالطراز له . القلقشندي- صبح الأعشى- ج٥- ص٣٢٤ .

٣٧- زكي- الاسلام والمسلمون- ص٥٠ .

٣٨- القلقشندي- صبح الأعشى- ج٥- ص٣٣٥ .

٣٩- الادريسي- نزهة المشتاق- ص٢٤-٢٥ ؛ أبو الفدا- تقويم البلدان- ص١٦٠ .

٤٠- ابن بطوطة، عبد الله بن محمد اللواتي(ت٧٩٩هـ)- رحلة ابن بطوطة- ط٢- مصر١٩٢٨م- ج١- ص٢٩ .

٤١- الكارمية: لامعنى له في اللغة ويقال ان أصله الكانمى بالنون نسبة الى الكانم فرقة من السودان ذلك ان طائفة منهم كانوا مقيمين بمصر يشأنهم المتجر في البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن فعرف ذلك بهم . القلقشندي- ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر- تحقيق: محمود سلامة- القاهرة ١٩٠٦م- ص٢٥٣ .

٤٢- عاشور، سعيد عبد الفتاح- العصر المماليكي في مصر والشام- القاهرة ١٩٦٣م- ص٢٩٠-٢٩١ .

٤٣- صبح الاعشى- ج٣- ص٥٢٤ .

٤٤- أبو شامة،عبد الرحمن بن اسماعيل(٦٦٥هـ)- الروضتين في أخبار الدولتين- مصر١٢٨٧هـ - ج٢- ص٣٥؛ أبن الاثير، عز الدين ابو الحسن علي(ت٦٣٠هـ)- الكامل في التاريخ- بولاق ١٢٧٤هـ - ج١١- ص١٩٩ .

٤٥- محمد بن ايدمر(ت٨٠٩هـ)- الانتصار بواسطة عقد الامصار- ط١- بولاق ١٨٩٣م- ج٤- ص٣٠ .

٤٦- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي(ت ٨٤٥هـ)- السلوك لمعرفة دول الملوك- تحقيق: محمد مصطفى زيادة- ١٩٧٢م-ج١-ص٥٠٦ .

٤٧- م.ن- ص٥٠٦ .

٤٨- م.ن- ص٥٥٠ .

٤٩- عطية، سليمان- سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهاية عصر السلطان برسباي- رسالة دكتوراه – كلية الآداب- جامعة القاهرة- ١٩٥٩م- ص٥٦-٥٩ .- م.ن- ص١١٩ .

٥١-عاشور- العصر المماليكي- ص٢٩٠-٢٩١ .

٥٢- لبيب، صبحي- التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى- مجلة الجمعيات المصرية للدراسات التاريخية- مايو ١٩٥٢م- ص٣٤٣ .

٥٣- القلقشندي- صبح الأعشى- ج٤- ص٣٢ .

٥٤- العبر- ج٧- ص٤٥١ .

٥٥- م.ن- ص١٤٤ .

56- Lewis:Novel power .p.164.

57- Lewis:Novel power pp.209-210.

٥٨- القلقشندي- صبح الأعشى- ج٥- ص٢٨٢ .

٥٩- محمود- الاسلام والثقافة- ص٢٦٠ .

٦٠- م.ن- ص٢٦١ .

٦١- عاشور- العصر المماليكي- ص٨٢ .

٦٢- سنباذج: مادة حجرية للطلاء . المقريزي- السلوك- ج٢- ص٨٠٧ .

٦٣- يصف الادريسي طريقة جمع الذهب في صحراء البجة فإذا كان أول ليالي الشهر العربي وآخره خاض الطلاب في تلك الرمال بالليل ينظرون فيما يليه من الارض فإذا أبصر التبر يضئ بالليل علم على موضعه علامة يعرفها وبات هناك فإذا أصبح عمد كل واحد منهم الى علامته في كومة الرمل الذي علم عليه فيأخذه ويحمله معه ويمضي به الى آبار هناك ثم يقبل على غسله بالماء في جفنة عود فيستخرج التبر منه ثم يلفه بالزيبق ويسبكه بعد ذلك . نزهة المشتاق- ص٢٦-٢٧ .

٦٤- الادريسي- م.ن- ص٢٧ .

٦٥- م.ن- ٥٦ .

٦٦- عاشور- بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة- مجلة كلية الآداب- مجلد ١٤- ١٩٦٨م- ص٥ .

٦٧- ابن سعيد المغربي(ت٦٨٥هـ)- بسط الارض في الطول والعرض- تحقيق: د.خوان قرنيط – ١٩٥٨م- ص٥١؛ القلقشندي- صبح الأعشى- ج٥- ص٣٣٥-.٣٣٦

٦٨- المقريزي- الالمام بأخبار من ارض الحبشة من ملوك الاسلام- مصر ١٨٩٥م-ص٢٣؛ ميتز، آدم – الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري- نقله الى العربية: محمد عبد الهادي أبوريدة – ط٢- القاهرة ١٩٤٨م- ج٢-ص٣٢ .

٦٩- ابراهيم علي طرخان- غانة في العصور الوسطى- مجلة الجمعيات المصرية للدراسات التاريخية- مجلد ١٣- ١٩٦٧م- ص٧٠ .

٧٠- م.ن – ص٧٠ .

٧١- ابن بطوطة- الرحلة – ج٢- ص٢٠٥ .

٧٢- البكري – المغرب- ص١١ .

٧٣- الذراع يساوي طول ٣٢ اصبعاً . العمري، ابن فضل الله (ت٧٤٢هـ)- مسالك الابصار في ممالك الامصار- تحقيق: أحمد زكي- مصر١٩٢٤م-ج٢- ص٤٩٠ .

٧٤- م.ن .

٧٥- ناصر خسرو- سفرنامة- ص٤٦ .

٧٦- تكال الغلة في تلك البلاد بكيل اسمه الرابعية وتعادل ويبة من الكيل المصري وزنة أرطالهم اثنى عشر أوقية كل أوقية عشرة دراهم بصنجة مصر . القلقشندي- صبح الأعشى- ج٥- ص٣٣١ .

٧٧- م.ن – ص٣٠٧ .

٧٨- م.ن- ص٣٣١ .